

اللغة الدبلوماسية المغربية في القرن التاسع عشر

عبد الوهاب بنمنصور

قبل الحديث عن اللغة الدبلوماسية المغربية في القرن التاسع عشر لا بدّ من الحديث عمّا كانت عليه هذه اللغة فيما قبل، فأبدأ من البداية. لقد استقلّ المغرب عن الخلافة العبّاسية عام 172 هجرية عندما جاء إدريس بن عبد الله الكامل إلى المغرب فارّاً من موقعة «فخ» التي انهزم فيها علي بن الحسين بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب من أمام الجنود العبّاسيين، التجأ إلى المغرب بعد هذه المعركة مارّاً من مصر، واستقرّ أخيراً بجبل زرهون حيث أسّس الدولة الإدريسية.

انفصل المغرب عن الخلافة الإسلامية، ولم يعد تابعاً لأحد، وأعطى إدريس صورة الدولة لهذه المؤسسة الجديدة، وهي المملكة المغربية بأكثر مظاهرها، كانت لها هيئة وزارية يذكر التاريخ بعض وزرائها وكتّابها وعلمائها الذين جاؤا مع مؤسس الدولة من المشرق، كما يذكر بعض قوّاد جنودها. ومن مظاهر هذه الدولة أنها أسّست كذلك عملة طبعت في كثير من الجهات المغربية. وكان لها عمال في مختلف الأقاليم التي كانت تملكها.

وأريد هنا أن أصحّح وهماً راود المؤرخين أو الذين يهتمون بالتاريخ وهو أن إدريس الثاني لما توفي وزّع ولده محمد بن إدريس المملكة على إخوته، وهذا غير صحيح اعتماداً على نصوص تاريخية، لم يوزع المملكة على إخوته، بمعنى أنه لم يجعلهم مستقلين في أقاليمهم وإنما عينهم عمالاً وولاء لا غير. هذا ما ورد في النصوص التاريخية، وكان ذلك بإشارة من جدته كما هو معروف، ولم يقسم المملكة إلى ممالك وإمارات.

ومن مظاهر استقلال المملكة المغربية التي أسسها المولى إدريس خطبة الجمعة التي لم يعد يذكر فيها خليفة من خلفاء بني العباس. وبطبيعة الحال لا بد وأن تكون للدولة الجديدة دبلوماسية بلغة العصر الحاضر، أو أن تكون لها ارتباطات وعلاقات بالخارج. كانت الدولة المغربية الجديدة محاطة من الناحية الشرقية ببني الأغلب، قبل الفاطميين أو الشيعة أو بني عبيد، وكان أمامها في الشمال الخلفاء المروانيون في قرطبة. بداية الدبلوماسية المغربية كانت في عهد الأدارسة مع المروانيين وجلّها مذكور في كتاب «المقتبس» لابن حيّان، وقد نقلت أكثرها في مجلة «الوثائق» التي تصدرها مديرية الوثائق الملكية.

كما كانت لإدريس مراسلات مع شيعة آل و آل بيته في المشرق، وقد نشر الأستاذ علال الفاسي رحمه الله قبل وفاته رسالة طويلة موجهة إلى شيعة المولى إدريس في مصر مع تحليل، كما نشر أخونا المرحوم الأستاذ إبراهيم الكتاني رسالة أخرى وجهها الإمام إدريس إلى بعض المشاركة. وأخيراً عثرت على رسالة طويلة عريضة لإدريس موجهة إلى الشيعة في المشرق، وهذه الرسالة تعرف لأول مرة، نشرت في كتاب اسمه : «أخبار فخ» من نشر دار الغرب الإسلامي لصاحبها الحبيب اللّمسّي. وهي في الحقيقة وثيقة مهمة تتضمّن مذهب إدريس وميثاقه وما يدعو إليه.

كيف كانت لغة التخاطب في الدبلوماسية المغربية ؟ قطعاً المغرب بعقيدته الدينية لا بد أن يرجع إلى الأصول الأولى للمخاطبات عند الرسول ﷺ. وعند

الخلفاء الراشدين أو عند الذين جاؤا من بعدهم من أمويين وعباسيين. ونحن نعرف أن الرسول ﷺ وجه رسائل كثيرة إلى بعض ملوك عصره كالنجاشي ملك الحبشة، وملوك الروم، وعظيم مصر، كل هذا معروف ومذكور في كتب التاريخ. وهذه المراسلات كانت لها أصول وطرق في التحري وفي توجيه الخطاب إلى المخاطبين فمثلاً: «إلى عظيم الروم» أو «إلى نجاشي الحبشة» أو «إلى عزيز مصر». وكذلك التحية والتسليم كانت معروفة مثل: «السلام على من اتبع الهدى». وبعد ذلك يتطرق للغرض المقصود من الرسالة، وهذا شيء عرف في المخاطبات السياسية الأولى لملوك المغرب التي كانت تعتمد على الأصول الأولى لمخاطبات الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين. وكانت الصيغة تختلف، مرة تكون قوية إذا كان الملك أو السلطان قوياً، ومرة تكون ضعيفة إذا كان مرسل هذه الرسالة من ملوك المغرب ضعيفاً، وهذا شيء معروف عند كل الدول والأجناس.

وبعد هذه المرحلة الأولى جاءت مرحلة الدول الكبرى في المغرب، كالمرابطين والموحدين والمرينيين. حينئذ ظهر المغرب كقوة كبرى في البحر الأبيض المتوسط، في عهد المرابطين وصلت حدوده إلى وسط إسبانيا، وإلى مدينة بجاية مشرقاً، وإلى السودان جنوباً، والمرابطون أنفسهم جاؤا من الصحاري البعيدة. أما في العهد الموحدي فالأمر معروف، تجاوزت حدود الأبراطورية الموحدية تونس إلى ليبيا، وكانت لها مراكز وقوى، بل وسلطان ومُلْك في الأندلس، وكذلك في الجنوب. وفي العهد المريني بقيت الدولة المغربية قوية سيما في العصر الأول والثاني، بحيث كانت لها ارتباطات كثيرة مع ممالك وإمارات ودول أوروبا، والتاريخ يحفظ لنا الشيء الكثير من المراسلات التي كانت تتبادل بين ملوك الموحدين وبين معاصريهم من ملوك أوروبا وأمرائها. كما يحفظ لنا التاريخ رسائل وجهها يوسف بن تاشفين إلى ألفونسو السادس، ملك قشتالة الذي انهزم في معركة الزلاقة، وخاصة بعض مقاطعها من مثل (الجواب

ما ترى (لأ ما تسمع) عندما استدرجه إلى القتال، وطلب أن يقرب منه. فكانت هذه الرسالة تستند على الأصول الدينية كما قلت، بينما نجد ملوك المغرب يخاطبون ملوك المسلمين في المشرق سواء أكانوا ممالك في مصر أو عثمانيين أيام الخلافة العثمانية، باستعمال كثير من المحسنات البديعة، وألفاظ المجاملة والتلاطف أو التلطف معهم، ونجدها أحياناً تحتريز وتحتار في مخاطبة ملوك النصارى. على سبيل المثال أقرأ نموذجاً من مخاطبة السلطان أبي الحسن المريني للملك الصالح إسماعيل بن قلاوون، ملك مصر والشام، رسالة مؤرخة في 26 صفر عام 745 للهجرة الذي يوافق 9 يوليوز سنة 1344، ونصّها مذكور في «نفح الطيب»، كما أن القلقشندي في «صبح الأعشى»، نقل بعض المراسلات بين ملوك المغرب وملوك المشرق.

يقول السلطان أبو الحسن المريني مخاطباً الملك إسماعيل بن قلاوون: «من عبد الله أمير المسلمين، إلى محل ولدنا الذي طلع في أفق العلاء بداراً تاماً، وصدع بأنواع الفخر فجلا ظلاماً وظلماً، وجمع شمل المملكة الناصرية فأعلى منها علماً وأحيا لها رسماً، حائط الحرمين القائم بحفظ القبليتين، باسط الأمل قابض كفّ العدوان... الخ»، والتحيات كثيرة «سلام كريم يضاوح زهرالربا مسراه، وينافح نسيم الصبا مجراه، يصحبه رضوان يدوم ما دامت تقلّ الفلك حركاته ويتولّاه روح وريحان تحيي به رحمة الله وبركاته». هذا أسلوب طريف في مخاطبة ملوك المسلمين.

كذلك كانت بعض المجاملات بين ملوك بني مرين في مخاطبة أقيالهم وأندادهم من ملوك النصارى وأمرائهم. رسالة من السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني إلى خيلي الثاني، ملك أراغون، مؤرخة بخامس عشر شعبان عام 703هـ/شهر مارس 1304م. يقول في أولها: «من أبي عبد الله يوسف بن يعقوب بن عبد الحق [...] إلى السلطان الأجل الأسنى الشهير الأنيل الأحفى الأوفى المكرم الشهير الأنهض الأنجد (دون جاخما) سلطان أراغون». ويقول في

الدعاء له : «وصل الله فيما يرضى من الأفعال الجميلة اهتمامه وانتهاضه، ويسر لنا بحسب ذلك أغراضه...». وكان شيوخ الغزاة الذين كانوا بالأندلس، يوجهون رسائل إلى ملوك أراغون وبقية الممالك الإسبانية، فيها تحليلات ومجاملات لطيفة نظراً لحالة الظروف التي كانت قائمة في ذلك الوقت.

أما في العصر الذي تلا عصر بني مرين وهو العصر الوطاسي، وهم أيضاً مرينيون، فقد كان عصر الاستجداء والاستذلال والعياذ بالله، لأن الإسبانيين والبرتغاليين سيطروا على الشواطئ المغربية في ذلك العهد، وطردوا المسلمين من الأندلس، فكانت المخاطبات سيئة للغاية ولا قيمة لها، لأن مخاطباتهم لملوك الإسبان والبرتغال تدلّ على الهوان، وعلى الذل، يخاطبونهم بأسيادنا وموالينا وضيوفنا وعبارات كثيرة، ويعبرون عن تقبيل الأيدي كتابة. ولكن هذا الحال لم يلبث طويلاً، إذ تبدل بمجيء الأسرة السعدية وهي أسرة في أولها وبدايتها نشأت قوية ومتحمسة لطرد النصارى الذين كانوا قد استولوا على الشواطئ الجنوبية ولا سيما في عصر أحمد المنصور الذهبي الذي خلد تاريخ المغرب بمعركته الخالدة التي بدأها أخوه عبد المالك، معركة وادي المخازن، فكانت المخاطبات مع ملوك وملكات أوروبا، لأنه كان معاصراً للملكة إليزابيث الأولى في بريطانيا ولعدد من ملوك أوروبا، فكان يخاطبهم مخاطبة الند، والقوي للقوي، أو من يخطب مودة ملك آخر هو أيضاً في حاجة إلى اكتساب مودته، فكانت هناك مجاملات. لكن بعد وفاة المنصور وقيام الفتنة بين أبنائه وتنازعهم على الملك واستنجادهم وتعاونهم مع بعض ملوك أوروبا لمساعدتهم في التغلب على بعض إخوانهم مقابل التنازل لهم عن بعض الشواطئ، كما فعل محمد الشيخ الذي تنازل عن العرائش لملك إسبانيا، فعادت اللهجة ضعيفة بعد أن كانت قوية في عهد المنصور. ولكن ذلك أيضاً لم يدم طويلاً، إذ جاءت الدولة العلوية في عنفوانها وقوتها سيما أيام السلطان مولاي إسماعيل، فصار هناك كلام آخر، وأسلوب آخر في التخاطب والتعامل مع ملوك أوروبا، وملوك إسبانيا وأنجلترا

وفرنسا والبرتغال. فيما أن مولاي إسماعيل كان قوياً، وكانت عواطفه الدينية قوية، كان يخاطب ملوك أوروبا مخاطبة صارمة ليس فيها لطف، مثلاً مخاطبته للملك لويس الرابع عشر في رسالة مؤرخة في خامس شعبان سنة 1095هـ/1684م في مقدمتها : «إلى عظيم الروم الفرنسي لويس الرابع عشر من هذا الاسم، السلام على من اتبع الهدى، وبعد عن طريق الغي والردى...». وله رسالة أخرى وجهها إلى الملك كارلوس الثاني، ملك إسبانيا في 16 ذي الحجة عام 1101هـ/20 شتنبر 1690م يقول فيها : «إلى عظيم الروم وعظيم إقليم بلاد إسبانيا وبلاد الهند والمتولى أمورها والمتصرف في أقطارها دون كارلوس، السلام على من اتبع الهدى...» وكتب إلى جيمس الثاني ملك إنجلترا، وهو الملك الذي كان منفياً في فرساي عندما وقع الخلاف بين البروتستانت والكاثوليك في إنجلترا، وطلب منه أن يدخل في الإسلام، وأن يعينه على الرجوع إلى مملكته مقابل جيش مغربي يرسله إلى إنجلترا، كتب إليه في 15 شعبان عام 1109هـ موافق 26 فبراير 1699م يقول : «إلى طاغية الأنجليز القاطن بلاد فرانسيس يعقوب المسمى بلسانهم جيمس، السلام على من اتبع الهدى، وتجنب سبيل الغي والردى، وأمن بالله ورسوله ثم اهتدى»، يعني أنه لا سلام عليه لأنه لا يؤمن بالله وبرسوله ولا يهتدي. وهذا أسلوب كان يستعمله مولاي إسماعيل كثيراً، إذ كان يحتاط في مخاطباتهم وتحليتهم والدعاء لهم، مثلاً أتذكر أن الملك لويس الرابع عشر بعث لمولاي إسماعيل مع واحد من الرهبان هدية في ذلك الوقت هي عبارة عن مختبر كيميائي، يتضمن أدوات تتعلق بالكيمياء، فأجابه مولاي إسماعيل برسالة يخبره فيها بوصول هديته ويشكره عليها، ولكن بماذا دعا له أو جراه ؟ قال في آخر الرسالة : «اللَّهُ يجازيك بما يجازي به أمثالك»، يعني كما يقول المثل المغربي : «جَنَّةُ عبروق، النَّارُ من تَحْتَ والتَّبنُ من لَفوق».

واستمر الأمر بين الأخذ والرد خصوصاً في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي كان أيضاً ملكاً قوياً مشهوراً، وكانت له علاقات كثيرة مع ملوك

أوروبًا وحتى مع المؤسّسين الأوّلين للولايات المتحدة الأمريكية، له مخاطبات كثيرة مع جورج واشنطن، فكان هناك نوع من التلطّف لأنه كان قويًّا، ولكن بعد السلطان سيدي محمد بن عبد الله ومجيء أولاده حصلت الفتنة بينهم من بعده، كما حصلت بين أبناء السلطان مولاي إسماعيل من بعده، إذ تنازعوا على الملك. إلّا أن الطامة الكبرى هي ما حصل بعد وفاة سيدي محمد بن عبد الله، إذ أصبح كل ما يتعلّق بالنصارى أو باليهود، وخاصة رؤساء الدول الأوروبية، له لهجة خاصة، وأسلوب خاص في الكتابة سواء بين السلطان ونوابه في الأقاليم، أو مع السفراء الذين يبعثهم الملوك إلى أوروبًا، أو مع دارالنيابة بعد أن تأسست في طنجة أو مع نائبيه في الشؤون الخارجية، وهما اللذان كانا صلة وصل بين الحكومة المغربية (السلطان والمخزن) وبين الدولة الأجنبية. ذلك أنه كان يتعذّر على الدول الأجنبية، وعلى ممثليها في المغرب أن يتّصلوا بالسلطان، لأنه كان في حركة دائبة من وجدة إلى سوس إلى طنجة إلى الصحراء الكبرى، كل مرة هو في مكان، فكانوا يعجزون عن الاتصال به، فقرّر السلطان أن يعيّن ممثلًا خاصًّا يقيم في طنجة باستمرار، ويكون على صلة وثيقة بالسلطان، يعرف أين هو وإلى أين سيتحرّك حتى يكون صلة وصل بين السلك الدبلوماسي المعتمد في المغرب ومقرّه في طنجة، وبين السلطان أثناء حله أو ترحاله.

هذه المراسلات التي كانت بين السلطان وبين نوابه في طنجة، أو بين عمّاله بالأقاليم صارت لها صيغة خاصّة، فكل ما ذكراليهود تضاف عبارة «لعنهم الله». وإذا كانوا نصارى تضاف عبارة «دمّرهم الله»، وفي مخاطبة ملوك أوروبًا، كانوا يستعملون كلمة طاغية الفرنسييس أو طاغية الأنجليز، وكان المستعربون في أوروبًا يترجمون كلمة (طاغية) بـ (Tyran أو Despote) فتقوم الدنيا ولا تقعد عندما يخاطب ملوك أوروبًا بهذه الكلمة، لدرجة أن بعض الرسائل السلطانية كانت تُردّ ولا تقدّم إلى ملوك أوروبًا ورؤسائها لأن فيها هذه الكلمة. وهناك رسالة كتبها الكونت الجنرال (دولاروا) الذي وقع معاهدة الحدود مع الحكومة المغربية، رفض

أن يبعث رسالة من هذا النوع إلى ملك فرنسا آنئذ لويس الثامن عشر الذي قامت عليه الثورة سنة 1848، وكتب إلى الحكومة المغربية برسالة أورها ابن زيدان في «أعلام الناس»، يقول فيها: «إن هذه الصيغة لا تليق بمخاطبة الملوك»، وحين نكاتبكم نحن نقول: «الملك الأود الأحب، الصديق العزيز، ملك فاس ومكناس وسوس ودرعة... الخ» وأنتم تكتبون إلينا: «إلى الطاغية الفرنسيين، سلام على من اتبع الهدى»، فهذا شيء غير معقول. فعقليتنا كانت في ذلك الوقت كذلك، كان بعض ملوك أوروبا لا يقبلون السفراء المغاربة، العلة أن المغرب في ذلك الحين لم يكن له دبلوماسيون، بل كان الملوك يعتمدون تجاراً في إرسالهم إلى أوروبا كمبعوثين وسفراء، ذلك أن التجار كانت لهم علاقات معاملتية مع تجار أجنبية في طنجة، وهذا ما كان يخولهم مخاطبة أوروبا لمعرفةهم بتجارها. من هنا أيضاً كان الملوك في رسائلهم يقولون لملك ما «نبعث إليكم مبعوثنا التاجر فلان»، فكان المقصود ما نعبر عنه بالخواجة، أي واحد من عليّة القوم. فكان ذلك نوع من التحلية. فكيف يمكن لنابليون الأول أو نابليون الثالث أو ماكماهون، رئيس الجمهورية أن يتقبلوا تاجراً؟ لأن مترجم رسالة ملك المغرب يستعمل في مقابل كلمة تاجر، كلمة (Négoçiant أو Marchand أو Commerçant)، ويفضّلون أن يكون المبعوث من العائلة الملكية أو من يتولّى وظيفة إدارية سياسية.

الخلاصة أن العقلية في القرن التاسع عشر تدهورت وكانت عقلية جامدة، فكان كل شيء يتعلق بالنصارى أو اليهود يتحرّز منه، لقد كانت مخاطبتهم آنئذ صعبة، فأحرى التشبّث بهم أو طلب مودّتهم أو التحلّي بشيء من صفتهم، كان يبعث الشك في إيمان من يفعل ذلك، ووقعت أشياء كثيرة من هذا القبيل. أتذكّر أن السلطان مولاي الحسن كتب رسالة إلى برغاش على إثر ما بلغ به السلطان من أن برغاش كان يخاطب (جان هاي إدريموناي)، سفير بريطانيا العظمى في المغرب لمدة 45 سنة بكلمة «المستر»، ويقول المُبلِّغ أن معنى «مستر» هو السيد،

والسيد هو الله سبحانه. فيقول السلطان لبرگاش كيف تتجراً وقد بلغت بك قلّة الدين أن تخاطب باشا دور الأنجليز بكلمة «مستر»، ألا تعلم أن هذه الكلمة تعني السيد، والسيد هو الله سبحانه، فخاطب في المستقبل باشا دور الأنجليز بـ «محبّ الجنب الشريف» مثلاً.

ومثل هذا وقع منه الشيء الكثير، مثلاً، أراد بعض أهل طنجة، نظراً لاختلاطهم بالأجانب، أن يؤسّسوا مقاهي بلدية (Café Maure) للأجانب لا تتاجر في الخمر، وإنما تقدّم على الخصوص الشاي وهم يدخنون. فبلغ السلطان ذلك فقام وقعد وكتب إلى العمّال في العرائش وطنجة يمنعهم من ذلك. يوم من الأيام أراد التجّار في الدار البيضاء أن ينقلوا البضائع التي تنزلها سفنهم البحرية بدل البهائم على بعض العربات أو العجلات، فقامت الدنيا ولم تقعد على أن هذا تشبه بالنصارى، وينبغي أن لا تحمل البضائع من المرسى إلى المتاجر إلّا على ظهور الدواب. ولا أريد أن أتحدث عن قضية الصحة واتخاذ بعض الوسائل الوقائية من الأمراض التي كانت تنتشر في المنرب، فإن برگاش الذي كان مندوباً في طنجة تلقى رسائل كثيرة لأنه أراد أن يجعل بعض الحواجز الوقائية بين الآتين من المناطق الموبوءة وبين مدينة طنجة، والسبب في ذلك هو احتجاج القناصل والجاليات الأوروبية على وصول هؤلاء المرضى مخافة أن ينتشر الوباء فيما بينهم. فلما أقام برگاش بعض الحواجز لصحة القادمين من الداخل قامت عليه الدنيا ولم تقعد.

وهناك أيضاً قضية الطلبة الذين كان يبعثهم ملوك المغرب للتعلّم في الخارج، حين يذهب الطالب إلى (مونبوليه) أو (ميلانو) أو (باريس) أو (أنجلترا) ليتعلّم، لا بدّ وأنه يأخذ شيئاً من مظاهر الحضارة الأوروبية، فسبب فشل هؤلاء الطلبة يرجع إلى ذلك، فمن تشبّه بقوم فهو منهم، ومن عاشر قوماً أربعين يوماً فهو منهم. لذا فإن الطلبة الذين ذهبوا ليتعلّموا الصيدلة في أوروبا وعادوا إلى

المغرب، لم يقبل أحد على دوائهم لأن المسلم إذا تناول دواءً أوروبياً معنى ذلك أنه أدخل الكفر في جوفه. وقد قال لي أبي رحمه الله : إنهم كانوا يضعون تلك الأدوية في ما كانوا يسمونه بالقرطاس، ويجلسون في الشوارع لبيعها بدل الصيدلة.

وفي نفس الصدد أتذكر أن شيئاً وقع، لا في القرن التاسع عشر، ولكن في حوالي سنة 1925، إذ عندما التحقنا بالكتاب (المسيد)، ونحن صغار كانت المصالح الصحية تبعث بمرضى لتلقيحنا ضدّ الجدري، فكان الناس يعتقدون أن هذا التلقيح يعني إدخال الكفر في الجسم، الكفر في جسم الملقح. لذا كانوا يحضرون مقدّم الحومة والعساس، ويقفلون علينا الكتاب، ويأتي الطبيب لتلقيحنا داخله كالمساجين.

إن الجمود الفكري والتعلق بأوهام يظن أنها من المعتقدات من أسباب التحرز من النصارى، سواء في المخاطبات الدبلوماسية أو في المعاملات اليومية.